مركز شؤون المرأة - غزة
Women's Affairs Center - Gaza

من هنا بدأت معاناتـــــي،
فقد استشهدت ابنتي نور،
أما أنا فقدت بصري ...

بقلب يعتصـــــره الألم
ودموع تنهمـــر بلا توقف ،
مشـــهد دفن فلذة كبدي
بيدي فـــــي ركن من
المدرسة سـيبقى محفوراً
في ذاكرتي ما حييت ....

فقدت بصري وابنتي

كانت إكرام من سكان مدينة جباليا شمال قطاع غزة، راضية بحياتها البسـيطة، تجد في استقرارها عزاءً رغم أوجاعها اليومية مع مرض زوجها ورعاية أبنائها الخمســـة الذين يعاني معظمهم من إعاقات بصـــرية وسمعية، لكن الحرب الإسرائيلية المدمّرة قلبت موازين حياتها، وحوّلت سكونها إلى فوضى لا تنتهي. فبعد شهرين فقط من اندلاعها، أصابتها شظايا صاروخ في عينيها، لتفقد القدرة على الإبصـــار بوضوح، ويزداد عبء الحياة عليها أضعافًا.

تبلغ إكرام خمســـين عامًا، ويعاني زوجها البالغ من العمر (54 عامًا) من جلطة في عينه، ولها سبعة أبناء؛ اثنان من الذكور وخمس بنات، أكبـرهم محمود البالغ من العمـر (32 عامًا) وهو متـزوج ويعانـي من إعاقة سمعية وبصرية، يليه محمد البالغ من العمر (31 عامًا)، ثم هبة (27 عامًا) وهي أرملة تعيل طفلة صغيرة، أما ياسمين (25عامًا) فتعاني من إعاقة سمعية وبصـرية، وكذلك شقيقتها آية البالغة واحدًا وعشـرين عامًا، تليهما ملك التي لم تتجاوز السابعة عشرة، بينماُتعد نور أصغر الأبناء وهي في التاسعة من عمرها.

جاءت الحرب لتقلب حياة إكرام إلى كابوس، في ظل معاناتها الصـحية المسـتمرة، ففي السـاعة الخامسـة والنصـف مسـاءً من 27 أكتوبر/تشـرين الأول 2023، وبعد أسبوعين فقط من بدء الإبادة الجماعية في قطاع غزة، كانت عائلتها مجتمعة في بيتها حين دوّى انفجار هائل هز المكان، لتتهاوى الجدران ويسـقط البيت بأكمله.

تقول إكرام: "في لحظات وجدنا أنفسـنا تحت الركام؛ بعضـنا فاقد للوعي، وآخرون لا يرون سوى الظلام، ولا نسـمع إلا أنين بعضـنا البعض، كانت لحظة لا تشـبه أي شيء عرفناه من قبل؛ امتزج فيها الألم بالخوف، والعجز برغبة ملحّة في النجاة، وبمسـاعدة بعضـنا استطعنا الخروج من تحت الركام ركضًا، فيما الجروح والشظايا تغطي أجسادنا".

أصيب ابنها محمود في قدمه إصابة بليغة اضطر الأطباء إلى بترها، فيما تعرض زوجها لجروح في يده. وبرغم ذلك، لم يخطر ببال إكرام أن تنجو عائلتها من تحت الركام، بعدما سُويّ مربعهم السـكني بالأرض بغارات قوات الاحتلال الإسـرائيلي، ومع ذلك بدأت العائلة رحلة نزوحها الأولى إلى إحدى المدارس في جباليا شـمالي قطاع غزة.

وفي الثالث عشر من ديسمبر/كانون الأول 2023، وبينما كانت ليلة ماطرة عند الساعة الحادية عشرة مساءً، تعرضت المدرسة التي احتمت بها العائلة لقصـــف مدفعي من دبابات الاحتلال الإسرائيلي .

تقول إكرام: "من هنا بدأت معاناتي الجسـدية والمعنوية؛ فقد استشـهدت ابنتي الصـغرى نور، قطعةً من قلبي فقدتها في لحظة، أما أنا فأصبت في عيني إصابة بالغة أفقدتني بصـري، وأصيبت ابنتي هبة بشـظايا في ظهرها، فيما تعرضـت آية لإصـابة خطيرة في أذنها. لم يكن وجعي فقط فقدان النظر، بل كان الألم الأكبر أنني فقدت ابنتي التي كانت نوري، ولم أستطع حتى أن أودعها الوداع الذي تستحقه".

بعد ما مرت به عائلة إكرام، لم تعرف إلى أين يمكنها الفرار، خاصةً مع حصـار مسـتشـفى كمال عدوان ومسـتشـفى اليمن السـعيد شمال قطاع غزة، والقصـف المتواصل من كل اتجاه، اضطرت العائلة للبقاء في المكان نفســـه، بينما كانت عيناها تنزفان وهي عاجزة عن الوصول إلى المســـتشـــفى.

وتروي إكرام أصعب لحظة مرت بها: "لم أستطع دفن ابنتي كما يليق بها، فبســبب الوضع الأمني لم يكن بالإمكان نقلها إلى مقبرة أو تكريمها بدفن يليق بها. لجأتُ إلى دفنها في المدرسة نفسـها، بقلبٍ يعتصـره الألم ودموع تنهمر بلا توقف. مشـــهد دفن فلذة كبدي بيدي في ركن من المدرسة سيبقى محفورًا في ذاكرتي ما حييت".

كان ابنها محمد يعمل ممرضًا، فحاول إسعافها بما توفر لديه من أدوات بسيطة وإمكانيات محدودة، كان بالإمكان إنقاذ عينيها لو توفرت الرعاية الطبية اللازمة، لكن غياب المستشفيات والخدمات الصحية حال دون ذلك، لتفقد بصرها جزئيًا.

بقيت العائلة صامدة ثلاثة أيام عصـــيبة دون قدرة على الحركة، حتى توغلت دبابات الاحتلال في المنطقة، وأرسلت طائرة مسيّرة من نوع "كواد كابتر" كرسالة تطالب العائلات بإخلاء المدرسة فورًا.

لم يجدوا أمامهم ســـوى الفرار بأرواحهم، تاركين خلفهم كل ما يملكون من أغطية، وفراش، وطعام، وملابس.

تتابع إكرام: "هربت مع أبنائي وسط الرمال الموحلة والغبار، والدبابات من حولنا والطائرات تترصد أنفاسـنا من السـماء، كان كل من يلتفت يميًنا أو يسـاًراُيواجه إما بالاعتقال أو الاستهداف دون رحمة. الخوف يطوقنا من كل جانب، بالكاد نسـتطيع مواصلة السـير، كانت معاناة لا تُنسـى، إذ يعاني بعض أبنائي من صعوبات في السـمع أو البصـر، فيما كنت أنا أحاول شق الطريق فاقدةً بصـري، والرعب يملأ قلبي. المفترض أن أكون أنا من يثبتهم، لكنني وجدتهم هم من يمسكون بيدي المرتجفة ليمنحوني القوة".

اسـتمرت معاناة إكرام، فقد اعتقلت قوات الاحتلال الإسـرائيلي ابنها محمد على حلّابات مدينة جباليا، لتزداد معاناتها إلى أقصـى حدودها، لتسـتطرد: "فقدت بصـري وابنتي، أما ابني فهو بين يدي عدو لا يعرف للرحمة معنى، ومع كل هذا، ظل يقيني راسخًا بأن هذه الأرض ستشـــهد يوماً على آلامنا ودموعنا وصمودنا، وأن الحق لا بد أن يعود مهما طال الليل".

تسـتكمل إكرام رحلة معاناتها، فقد سقطت أثناء هروبها ونزوحها إلى خيمة في حي الشـيخ رضوان شمال غرب غزة، وكُسـرت قدمها وأصابت فقرات ظهرها مشـاكل نتيجة حمل الأغراض الثقيلة والنوم على أرض صلبة بلا فراش. وبعد هدوء الأوضاع نسبًيا، توجهت للطبيب لمعالجة عينيها، لكنه أبلغها بعد فوات الأوان بأنها تعاني من بتر في الشبكية واتساع حدقة العين، مما سيجعل نظرها ضعيفًا ولن تعود ترى جيدًا.

وعلى الرغم من ألمها وفقدها، وقســـوة الحرب التي أخذت منها فلذة كبدها ونور عينيها، ما زالت إكرام تتمسك بالأمل، متشـبثة بالحياة من أجل أبنائها الباقين، علّ الغد يحمل لها رحمة أكبر وطمأنينة أخف وطأة من هذا البلاء.